

العلوم الغربية بين تاريخها الانفصالي ودعوات التكامل المعرفي

قراءة في إرهاصات الانفصال المعرفي الغربي

Western science between its history of separatism and calls for cognitive integration

A reading in the harbingers of western epistemological separation

عبد الحليم بن حجة

جامعة حسبة بن بوعلي، الشلف / الجزائر a.benhadjba@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام : 2023/06/01 ؛ تاريخ القبول : 2023/06/29 ؛ تاريخ النشر : 2023/12/20

Abstract

الملخص

Since its first attempts to establish knowledge, the Western epistemological paradigm tended to separate it from the existing and deep spirit that distinguished Eastern thought, contenting itself with the work of thought and the centrality of material existence - but this approach made its sciences separate and partial, hence this research paper seeks to:

- Standing on the precursors of the cognitive separation that formed the structure of the Western cognitive model.
- To present the results of this epistemological separation on science and curricula.
- To call for the principle of cognitive integration, instead of relying on the idea of reductionism and separatism, which demonstrated the shortcomings of its vision

اتجه النموذج المعرفي الغربي منذ محاولاته الأولى في تأسيسه للمعرفة، إلى فصلها عن الروح القائمة والعميقة التي ميزت الفكر الشرقي، مكثفيا في ذلك بعمل الفكر ومركزية الوجود المادي - لكن هذا التوجه جعل علومه منفصلة وجزئية، من هنا تسعى هذه الورقة البحثية إلى:

- الوقوف على إرهاصات الفصل المعرفي التي شكلت بنية النموذج المعرفي الغربي.
- أن نعرض لنتائج هذا الانفصال المعرفي على العلوم والمناهج.
- أن ندعو إلى مبدأ التكامل المعرفي، بدل الارتكان إلى فكرة الاختزال والانفصالية التي أبانت عن قصور نظرهما.

Keywords : the sciences, separation, integration, Knowledge, Specialization, العلوم، الانفصال، التكامل، المعرفة، التخصص.

1. مقدمة:

يعلق "إدغار موران" على النزوع المعرفي الانفصالي الحاصل داخل العلوم الغربية قائلاً: قد كان هذا المبدأ في غاية الأهمية لتطور المعارف، انطلاقاً من طفرة العلوم الحديثة التي سرعان ما تحولت إلى مجالات واختصاصات، إلا أن انفصال هذه الأخيرة وانعزالها عن بعضها البعض راح يفضي إلى نشوء فراغات هائلة في ما بينها.

من الواضح هنا كيف أعاب <إدغار موران> على العلوم الغربية نزوعها المعرفي غير التكاملي، بسبب آليتي التبسيط والاختصاص التي انتهجتهما، مما أورثها فصلاً متبائناً عن نسيج الظواهر والأفكار، وجعلها معارف ومناهج جزئية قاصرة في تفسيرها ورؤيتها، فالمنظومة المعرفية الغربية بهذا الشكل لا تعترف بالحقبة الكلية المركبة التي تستمد يقينها من العوالم الفضاضة (الدينية، الوجدانية، الميتافيزيقية) والأطر الإدراكية الشاملة، بل راحت تستجمع مضمونها إما من العقل أو التجربة الحسية أو المنفعة أو القوة، وكلها أسس جزئية متغيرة لا تعرف الثبات، مما يجعلها غير مؤهلة لأن تؤسس عليها منظومة علومنا، هذا الخلل في الرؤية المعرفية انعكس مباشرة على أصالة المناهج والنماذج المعرفية، فظل العلم يتخبط في أزمت ابستمولوجية لم يتجاوزها، طالما لم يتجاوز مآزقه المعرفية ومنها مآزق الانفصال المعرفي والمنهجي التي وقع فيها. ولكن ما سبب ذلك؟ وما هي الإرهاصات التي أورثت هذا انفصال المعرفي بين العلوم والمناهج؟.

2. إرهاصات الانفصال المعرفي بين العلوم والمناهج:

منذ المحاولات الأولى للنموذج الغربي (اليوناني) تأسيسه لنظام المعرفة، اتجه إلى الصورة العقلانية المنفصلة عن الروح القائمة والعميقة التي ميزت الفكر الشرقي، مكتفياً في ذلك بمركزية الوجود المادي ما أضفى به إلى رؤى إدراكية اختزالية، ومناهج وتخصصات انفصالية.

فقد اتجه اليونان في محاولتهم الأولى لفهم الوجود وتفسيره إلى عمل الفكر الخالص، وهو ما عرف في تاريخهم الفلسفي بالعبرية اليونانية التي انشق معها التفكير اليوناني عن عناصر التأملات الميتافيزيقية الميثولوجية وإعيا لذاته، متيقناً بطبيعته غير المنتهية (رشيدة محدي رياحي، 2016، ص38)، وهذا يعني ميل العقل اليوناني إلى نزع مظاهر الرمزية عن الوجود وإفراغ الطبيعة من

محتواها المقدس، والاتجاه إلى خلع المعقولة عليها " بمحاولة تفسير الأمور وفق مبادئ عقلية ثابتة يقرها الناس جميعاً، لأنها تشكل البنية الأساسية التي يعتمد عليها تفكيرهم وهو ما انتهى إليه العقل الغربي فعلاً، حينما ردّ ظواهر الوجود إلى مبدئين رأسيين هما: مبدأ الهوية وما تفرع عنه من مبدأي عدم التناقض والثالث المرفوع، ومبدأ العلية الكافية وما تفرع عنه من مبدأي الحقيقة والغائية " (رشيدة محيي رياحي، 2016، ص38).

طبعاً عملية عقلنة الفكر والوجود هذه اتجهت بالفكر الغربي إلى إعلاء التفسير السببي العيني للطبيعة، فمنذ الاجتهادات الفكرية اليونانية للجواب عن سؤال ما أصل الوجود؟ لم يتجاوز تفسير الفلاسفة الطبيعيين الأوائل حدود الفهم المادي المنتهي عند المبادئ الحسية للوجود (ماء، نار، هواء، تراب...الخ)، مؤسسين بذلك لرؤية معرفية مادية مختزلة لأفق الحقيقة في بعدها العقلي المادي الخالص. وداخل هذا النظام الواحد المادي الذي بدأ يعم، رغم بعض المحاولات للحفاظ على الإرث الديني وإخفاء العقل في لبوس ميتافيزيقية، وعدم قطع الصلة بين الحقيقة والحكمة، من جهود <فيثاغورس> و<أفلاطون> و<الأفلاطونيين> الجدد، ثم توسع المسيحية بما كان مقدر لها كتدبير سماوي "تخليص العالم من خسران الإيمان الديني (...)" وصرف التقليد الحكمي اليوناني بـكله" (سيد حسين نصر، د.س، ص 157).

إلا أن نزوع الفكر الغربي إلى عقلنة الوجود بعد اختباره لتجربة العرفان المسيحي، التي ضيقت عليه حدود الإبداع الفكري واشترطت عليه ممارسة فعله ضمن المعطى اللاهوتي، ما لبث أن أدى إلى إعلاء قيم العقلانية والحرية الفكرية من جديد خلال عصر النهضة، إذ كان لزاماً على الفرد الأوروبي أن يثور ضد وصايا الكنيسة الخائفة وتعاليمها المزيفة، فلم يتردد <ديكارت> (1596، 1650) عن رفضه للموروث بكل أشكاله ومبادئه بالأنا المفكرة مبدأ للوجود والمعرفة، عندما "أحال الأنا الفردية إلى محور الواقع بعد فصلها عن الوحي، واستطاع <هيجل> بعدما مهدت له شكوكية <هيوم> ولا أدريه <كانط> أن يقوض هذا المركز تماماً مختزلاً الكينونة إلى صيرورة،

والحقيقة إلى عملية زمنية والعقائد الميتافيزيقية الجليلة إلى فكر دنيوي مقوض ومبتذل" (سيد حسين نصر، د. س، ص155).

داخل هذا النظام الواحدى الجديد رفض الفكر الغربى فكرة المركز المتجاوز للواقع الحسى تماما وتدرجيا اكتمل الطرح مع الفكر الإستتارى لىتم الإعلان عن حلولىة مركزية الكون فى المادىة ذاتها من ثم " لا تصبح الحقيقة أمرا مفارقا للعالم (الطبيعة والإنسان)، وإنما تصبح أمرا كامنا فيه أى فى طبيعة الأشياء" (عبد الوهاب المسيرى، 2006، ص300) ، وطبعا المادىة لا تكثرث بأى أهداف أو غايات فى حركتها الآلىة المصمتة، وقوانينها المطردة.

وما ساعد على هذا الاختزال والتجريد يقول المسيرى: " انتشار المطبعة التى سرت من ذىوع الكتابة على حساب التراث الشفهى، فالنصوص المكتوبة أصبحت أكثر وعيا وتنظما، ومن ثم أكثر ابتعادا عن الواقع المتعين، ويمكن أن يصل الكاتب من خلالها إلى مستويات من الاتساق الداخلى الهندسى ومن التجريد أعلى بكثير من النصوص الشفهية، بحيث يمكن أن يتحرك العقل داخل بنى هندسية مجردة لا يربطها رابط بالوجود الإنسانى" (عبد الوهاب المسيرى، 2006، ص215/ 216)، والملاحظ فى هذه الخطابات المطبوعة أنها بدورها اتجهت إلى تجاوز الغموض والإطناب والكثافة الرمزية التى كانت تميز الخطابات الشفهية الطبيعية. فأسدلت الاختزالية ستارها كما يظهر على جميع مظاهر الحضارة الغربية، وما كان يبدو مكمنا قوة (من رمزية، تقديس، سحر) فى اللغة الشفهية الوسيطية، أصبح مكمنا نقص، كما "ساهمت المطبعة فى سرعة وصول الأفكار إلى قطاع كبير من الناس فى وقت قصير نسبيا، وقد صاحب كل هذا تراجع الثقافة الشفهية الجماعية والارتجال الذى لا يتسم بالاتساق الهندسى الصارم ويعبر عن الواقع بشكل مباشر" (عبد الوهاب المسيرى، 2006، ص 216)، إذ أصبح الكتاب يتفننون فى اختار الكلمات المنمقة والعبارات الجذابة ، فانقلت أفكار الإنسانويين وتعاليم الإصلاح الدينى الجديدة بسرعة، مما عجل فى تغيير التصورات والرؤى "وقامت المشاغل الأوربية، قبل سنة 1500 بإنتاج ما بين 35000 و40000

العنوان العلوم الغربية بين تاريخها الانفصالي ودعوات التكامل المعرفي

قراءة في إرهاصات الانفصال المعرفي الغربي

كتابا تعرف ببواكير المطبوعات ونشر فن الطباعة الثقافة والأفكار طول القرن السادس عشر، ورُمي في السوق من 150 إلى 200 مليون نسخة" (جاكولين روس، 2011، ص 110/109).

وبالموازاة مع هذه الثورة في العلوم الطبيعية ليس غريبا أن تنتقل العدوى إلى مجال العلوم الإنسانية، فظهرت في البداية النزعة الإنسانية، التي راحت تحتفي بمقولة حبروتاغوراس: <الإنسان مقياس الأشياء كلها>، رغم أن هذه النزعة "ظهرت في بعثتها الأولى كحركة فكرية أدبية في القرن الخامس عشر ساعية في ذلك إلى تجديد مصادر الإلهام الأدبي" (جاكولين روس، 2011، ص 120)، من خلال إحياء التراث اليوناني والانفتاح على العقل المطلق على حساب القرون الوسطى الجنازية، فالدعوة إلى بعث الإنسان من جديد بواسطة الإنسان ذاته ومقدرته على التوصل إلى القوانين المجردة الكامنة في الطبيعة هو ما أكدت عليه النزعة الإنسانية، يقول المسيري: "وقد أدى هذا إلى ظهور الإيمان بالتجريب العلمي الذي سيطر على العقل، وفي الوقت نفسه ظهر المفهوم المادي للعقل باعتباره صفحةً بيضاء تتراكم عليه المعطيات الحسية، التي تترابط من تلقاء نفسها وبشكل آلي لتنتج الأفكار المركبة المجردة" (عبد الوهاب المسيري، 2006، ص 216).

الجدير بالملاحظة هنا هو الرؤية المادية التي بدأت تعم الفكر الغربي سواء في نظرته للظواهر الطبيعية أو الظواهر الإنسانية، قياسا على النجاح الذي حققته العلوم الطبيعية، وكان هذا تمهيدا للتحول الخطير الذي حصل في تاريخ الإنسانية، يقول المسيري: "حدث تحول خطير في تاريخ الإنسانية، إذ ظهرت وحدة العلوم التي تقتض أن ما يسري على الظواهر الطبيعية يسري على الإنسان أيضا، ومن ثم فإن الاكتشافات في العلوم الطبيعية، لا بد أن تطبق على العلوم الإنسانية" (عبد الوهاب المسيري، 2006، ص 216)، وهذا يعني تطبيق المناهج العلمية على الظاهرة الإنسانية حتى نحقق موضوعية ودقة العلوم الطبيعية، ما دام هناك قانون واحد يسري على الطبيعة والإنسان، وإذا كان هناك عالم داخلي فهو مجرد انعكاس لحزمة الإحساسات الخارجية، أو مجرد كيمياء عضوية

رغم أن الفكر الغربي في سنوات الاستتارة انقسم إلى نموذجين معرفيين، نموذج واحد مادي متمركز حول الذات والذي يفترض أسبقية الإنسان على الطبيعة/ المادة، ونموذج واحد مادي متمركز حول الطبيعة/ المادة والذي يفترض أسبقيتها على الإنسان، مما أحدث صراعا وإشكالا معرفيا بينهما وهو كما يوضح المسيري " إشكالية علاقة العقل الإنساني بالطبيعة/المادة وأيهما هو موضوع الكمون" (عبد الوهاب المسيري، 2006، ص 301)، إلا أن الصراع في الأخير حسم لصالح النموذج المتمركز حول الطبيعة/المادة، فهي الأصل في بداية الأمر وهي أيضا المآل في نهاية المطاف، أما العقل الإنساني فهو العنصر، إنه يدرك العالم من خلال الحواس" (عبد الوهاب المسيري، 2006، ص 301).

ولا نود هنا التصيل في المسألة، أقصد استقراء الخلفية التاريخية للرؤية المادية التي تشكلت عبر تاريخ الفكر الغربي، بما جلبته من فصل مطلق للمعرفة عن الأطر الدينية والإنسانية، لأن ههنا يتجه إلى توضيح المآزق التي جلبها هذا الفصل والحياد للمعرفة واستجلاء " الفراغ الذي أورثته التنتظرات المعرفية الوارثة للرؤية الكونية التوحيدية وأزمة الحقيقة والقيمة في الحضارة الغربية الراهنة، وما حصل من انسداد لمجاري الفكر الفلسفي ما بعد الحدائي بعد تدمير مرتكزات الحقيقة، الدينية والعقلية وانفراطه في تأويل المتدوم للأشياء " (بلعقروز عبد الرزاق، 201، ص62).

إن المآزق الذي وقعت فيها المنظومة المعرفية الغربية هو إعلاؤها للواحدية المادية ومن ثم انتصارها للحقيقة الموضوعية التي يتساوى فيها الإنسان والأشياء، غاية العقل فيها رصد الواقع الحسي بعناصره الكمية الحسابية القابلة للقياس والتجريب، فقد اتجهت أنظار الفلاسفة منذ عصر النهضة إلى تفسير الطبيعة على نحو عقلاني تجريبي تجاوزا للميتافيزيقا بكل أنواعها، بيد أن العلاقة القائمة بين الإنسان والواقع ليست علاقة موضوعية حسابية أو علاقة أداتية نفعية دائما، بل علاقة استخلافية إنسانية أخلاقية وجمالية تفرض النظر إلى الحقيقة بنظرة تركيبية كلية، لا ترى في الظواهر جانب الحق فقط، بل ترى منها جوانب الخير والجمال والإنسانية وغيرها من الجوانب الأخرى.

العنوان العلوم الغربية بين تاريخها الانفصالي ودعوات التكامل المعرفي

قراءة في إرهاصات الانفصال المعرفي الغربي

قد يعتقد البعض أن موضوعية الحقيقة تستوجب الحياد والإنصات لواقع هذه الحقيقة دون إحداث أي تجاسر أو تفاعل مع أي معارف أو علوم أخرى ، كأن يتم فصلها عن مقولة الميتافيزيقيا والاعتبارات الإنسانية والنظر إليها من داخل الموضوع لا من خارجه، إذ ينبغي أن يتمتع نظام المعرفة دائما بحد من المحايدة، وألا يحمل أي نوع من المشاركة النسجية لظواهر الوجود.

هذا الطرح يجعلنا نتصور أن الأصل في المعرفة الإنسانية يفترض الملازمة والتواصل والذاتية والموضوعية في الوقت ذاته، وهو ما عبر عنه المسيري بمقولة: أقل وأكثر تفسيرية، بدلا من الموضوعية والذاتية، ذلك أن اللامحدود والمجهول موجودان دائما في صميم الظواهر، ولا يمكن للإنسان أن يتمتع باستقلال تام عما حوله، كما أنه لا يستطيع فهمها بشكل موضوعي شامل ومحايد وإلا وقع في القصور. "فالتنبؤ الدقيق بأيّ حادثة مستقبلية يشترط مسبقا علما تاما بحالة الكون

الراهنة، وهذا ما لا يمكن تحقيقه" (Louis de Broglie, 1941, p60).

فإذا كان هذا حال العلوم الطبيعية فما قولنا عن العلوم الاجتماعية، لاسيما وأنها علوم معيارية، خصوصا وأن موضوعها الإنسان الكائن الوحيد الذي لا يستجيب للمثير المادي المباشرة. إلا أن هناك من يرى أن هذه العلوم شأنها شأن العلوم الأخرى (الطبيعية) فقدت رؤيتها الإنسانية، وأصبح أفقها محدودا بأفق مجتمعاتها ومرجعيتها نموذجها الحضاري المادي، فمنذ أن أعلنت وجوب فصلها للواقع عن القيم الدينية، الأخلاقية والإنسانية، لتحقيق حيادها وموضوعيتها المزعومة، أصبحت مأزومة واستشكالية هي الأخرى.

- مشكلتها في نسيانها لطبيعة موضوعها (الإنسان/الإنسانية) بعد ارتئانها للنموذج الأحادي

المادي، المتجه إلى خصوصية العلوم والمنهج والرؤية، يقول المسيري: "فقد اتجهت العلوم الاجتماعية والإنسانية الغربية نحو النماذج الكمية والنماذج المادية لتركز لاهتمام على تلك الظواهر التي توجد داخل هذا النطاق وحسب" (عبد الوهاب المسيري، 2006، ص 39/ 40)، ونسيانها لطبيعة موضوعها المتميز بفرادته الروحية والأخلاقية والإرادية والغائية والميتافيزيقية، معناه اختزالها

لعوالم كثيرة واقتصارها على بعد فزيائي أصم، في حين أن الإنسان كل مركب لا يقبل التبسيط أو التبسيط، وكل تفسير ينحو في هذا الاتجاه سيكون قاصر .

- ومشكلتها ثانيا: في منهجها الذي يعمل على رصد الظواهر الإنسانية، كما ترصد الظواهر الطبيعية فالباحث الذي يكتفي بتطبيق منهجًا تجريبيًا ينصت للملاحظة والتجربة، ويستند إلى الحساب والكم لا يدرك الفرق بين الظاهرة الفيزيائية وظاهرة اسمها الإنسان، يقول المسيري: "الباحث الذي لا يؤمن باختلاف الإنسان عن الطبيعة يقوم برصد الظواهر الإنسانية، كما يرصد الظواهر الطبيعية، فهو لا يفرق بينهما (...)"، أما الباحث الذي يؤمن باختلاف الإنسان عن الطبيعة فإنه يعرف أنه حينما يرصد سلوك جماعة من الدجاج فإن هذا يختلف تمام الاختلاف عن رصد سلوك أسرة بشرية، وأن رصد سقوط حجر من الطابق الرابع يختلف عن رصد سقوط طفل من الدور نفسه" (عبد الوهاب المسيري، 2002، ص 231).

إن ما حصل في تاريخ المعرفة الغربية إذا بعد فقدان مركزية الإله في الكون، ومن بعده مركزية الإنسان هو أحادية الرؤية المادية على وعي ومنهج الباحث الغربي، حتى أصبح لا يري أو يفسر الظواهر إلا من خلالها، فالباحث يبقي ويهمش انطلاقا من الرؤية الإدراكية التي يتبنّاها، ومن ثم المنهج الذي يستخدمه.

لكن من المعروف أن المنهج العلمي المطروح داخل الرؤية الغربية المادية ضمن الفلسفة الوضعية، قائم في جوهره أساسا على "رفض كامل لأي علاقة بحركة المادة من خارجها على نحو ما ورائي (...)" أو من داخلها على نحو حلولي، كما أنه رفض لأي غائية مسبقة على نحو تضمني مثالي " (عبد الحليم عويسن 1997 ص 53)، مرتكزا بهذه الصورة على عناصر حسابية تجريبية خالصة، غير متجاوزة لواقعه الحسي، ذلك أنه لم يربط منذ البداية عالم الحقيقة بالذات الإنسانية، بل تصور معيار صدقها في مطابقتها للواقع والأحداث، هذا ورغم التعديلات التي قدمتها بعض المدارس الفكرية في العقود الأخيرة من القرن العشرين، من داخل النظام المعرفي نفسه، قد أعادت صياغة هذا النظام بصورة أعمق للبعض ، ولكنها في الحقيقة لم تمس صميم الفكر وخلفياته.

العنوان العلوم الغربية بين تاريخها الانفصالي ودعوات التكامل المعرفي

قراءة في إرهاصات الانفصال المعرفي الغربي

هذه بعض مظاهر التأزم والتعقيد التي تواجهها العلوم الاجتماعية خصوصاً والمعرفة العلمية الغربية عموماً، بعد تشكلها في قالب الفكر الاختزالي المنافي للتوحيدية والشمولية وعناصر التفاعل والتكامل، وارتهانها إلى الوضعانية، وكان من الطبيعي جداً أن تنعكس مظاهر التأزم على واقع العلوم والمناهج المعاصرة، والنتيجة في الأخير تأسيس نظام معرفي خارج حدود التكامل المعرفي، وامتداد جذور الانفصال إلى تخوم الفكر ما بعد الحداثي، حيث تصبح العدمية واللامعنى والفوضى واللامعيارية مرتكزات الحقيقة من جديد، لينتهي يقين الإنسان الغربي إلى نهاية التاريخ وصدمة المستقبل.

بهذا نزعت العقلانية الغربية باسم الموضوعية والحياد العلمي وتجاوز الميتافيزيقا، وغيرها من الشعارات الأخرى إلى حقيقة أنه لا معنى لشيء اسمه الحقيقة واليقين والقصص الكبرى، وأنه لا يوجد سوى الصيرورة والقصص الصغرى، ذلك أن "محاولة تأسيس نظرية (عامة) على أساس القصة الصغرى هو من قبيل العبث، إذ لا يمكن التعميم من الخاص، فكل النظريات قصص، ومن ثم فالوصول إلى علوم تكاملية، أو حقيقة أخلاقية كانت أم دينية أم إنسانية غير ممكن، والمعرفة أمر غير وارد ولا يوجد أساس لكتابة تاريخ عام ولا توجد نظرية للكون، ولا توجد إنسانية شاملة ومشتركة ولكن توجد جزر من الحتمية والحرية والمعرفة، كلها مرتبطة بمواقع محلية مختلفة داخل إطار لغوي وتفسيري خاص" (عبد الوهاب المسيري، 2013، ص 229).

هذا الكلام يعني غياب أي مرجعيات نهائية ميتافيزيقية، أو موضوعية يمكن الاستناد عليها لتأسيس قاعدة تركيبية تكاملية للمعرفة، فكل ما يوجد مجموعة عوالم جزئية متعددة من خصائصها الانفصال والنسبية والتغير، مما لا يمكن الوصول معه إلى يقين أو معرفة شاملة، فيصبح السؤال عن الحقيقة المطلقة والمعرفة الشاملة مع دعاة ما بعد الحدث - كما يقول المسيري: - سؤالاً ميتافيزيقياً لا يختلف تماماً عن سؤال (ما الإله) ؟ لأنه لا يوجد شيء اسمه الحقيقة في ذاتها (على حد قول جاك دريدا)، وإنما يوجد فائض من الحقيقة (عبد الوهاب المسيري، فتحي التركي، 2003، ص 229)، أي كل ما بقي هو مجرد حقائق جزئية منفصلة تصنعها شبكة الألعاب اللغوية* أو قرارات القوة والهيمنة، أو اعتبارات المصلحة، وفي هذه الوضعية بدلاً من الارتهان إلى منظومة من

الأطر العليا المتجاوزة تتأسس عليها المعرفة الإنسانية، وبديل إحداث تفاعل منهجي، تصبح القصص الصغرى والقوى المتصارعة والمصالح المتضاربة هي من تصنع الحقيقة وتوجهها، من خلال آليات النقاش أو التفاوض .

طبعاً في إطار هذا الواقع ما بعد الحداثي يصبح السقوط في هذه التعددية والسيروية والانزلاق إلى هذا اللعب والرقص والتجزئة والشذرة أمر محتوم، ولكنه أمر مكلف لم يحقق أي إنعتاق كما تصور دعاة ما بعد الحداثة، بل جلب مأزومية ظاهرة، لأن التعددية والنسبية التي آلت إليها الحضارة الغربية لم تجلب لها إلا الرجعية واللامعيارية، والاختزالية وتلاشي الحقيقة.

3. الدعوة إلى التكامل المعرفي:

نقد الكثير من دعاة الدراسات البينية وأنصار نظريات التكامل المعرفي المعرفة القائمة على فكرة الانفصال والاختزالية والتخصص العلمي الدقيق، ودعوا إلى التكامل المعرفي الذي تستعيد فيه العلوم تجاسرها المنهجي وتفاعلها المعرفي، بما يؤسس لكمال معرفي يقوم على علاقة تشاورية بين العلوم والتخصصات والمناهج، بدل انفصالهما كما توهم دعاة الحداثة الغربية.

على ذلك يمكن القول أن كمال المعرفة ليس في الموضوعية المطلقة ولا في مطابقة الواقع والتحكم فيه فقط، بل في تسويغ الواقع من غير تجاوز لجانب من جوانب الوجود استكمالاً للحق، ولن يتحقق هذا إلا مع رؤية تركيبية تفاعلية تتطوي على علاقات المبادلة بين العلوم والمناهج.

والدعوة إلى تكامل معرفي بين العلوم هو دحض للشرط المنهجي الذي وضعته الفلسفات الغربية القائم على ضرورة التخصص وحيادية المعرفة وفصلها عن العوالم الدينية والإنسانية، والجمالية، وغيرها من العوالم الأخرى، وإقرار في الوقت نفسه بأن العلم يحتاج إلى نظام معرفي مركب وشامل، بمستوى كوني متعالٍ، يقوم في أساسه على مبدأ التوازن القائم أصلاً في طبيعة الوجود الإنساني وفي طبيعة معرفته، هذا المبدأ الذي يتأسس على الجمع بين الحاجات الروحية والمادية وعلى التأليف بين حقائق الوحي واجتهادات العقل، وربما هنا مكنم الاختلاف بين نظام المعرفة القائم على الاختزالية والتخصص والفردية، ونظام العلوم القائم على فعل التواصل والتكامل المعرفي.

ذلك أن كل القرائن العلمية أصبحت تؤكد أن آليات الحياد والموضوعية والاختزال والبساطة التي اشترطتها العلوم الحديثة كميّار للحقيقة، أصبحت تتعرض للشك وسحب المصادقية، وأنه لا يوجد

ما يمنع أن تتطوي المتربات المنطقية لأي نظرية علمية على أي أحكام شمولية، "فالعلوم الحديثة لم تعد تتأفي الحقيقة الدينية أو الجمالية أو عنصر أخرى خارج طبيعة موضوعه كما حدث في القرون السابقة.

كما أن أعمال الفكر في الكون بنوع من التركيب والشمولية يجعله أكثر ثراء في رؤيته للإنسان والطبيعة والإله، فلا يتم الوقوع في طروحات التبسيطية والاختزالية للأشياء، فالقدرة على التكامل المعرفي ينبغي أن تظل قائمة بين العلوم، المناهج والتخصصات، بوصفها مشروعا إنسانيا لا يكتفي بتراكمية المعرفة أو جمودها بل يدعو إلى الانفتاح على جملة التجارب والمعارف البشرية المختلفة، في إطار رؤية ديناميكية متواصلة في حدود القيم الدينية الأصيلة، والاعتبارات الأخلاقية والإنسانية المشتركة هذا الانفتاح الذي يجعل من الحضارات تتغذى من جميع خبراتها.

4. خاتمة:

بقدر متتالية الانفصال والحياد والموضوعية الصارمة التي سلكها الفكر الغربي في مناه المعرفي، انعكس ذلك على طبيعة علومه حيث أورثها قصورا في مناهجها ونتائجها وجعلها حبيسة الرؤى المادية الأحادية، بسبب آليات التبسيط والاختزال التي ارتهن إليها، وبالتالي فعبارة الانفصال المعرفي غدت لا تعبر عن حالة ارتقاء للعلوم والفنون والتخصصات، بقدر ما أصبحت تعبر عن صيحات استغاثة من خطر إجراءات الانفصال والحياد هذه.

من هنا ووعيا بقصور هذه الرؤية المعرفية الغربية وآلياتها المنهجية المبتورة، وفي سبيل تحقيق إصلاح للواقع المأزوم، ينبغي تصحيح الرؤى الإدراكية وتغيير النماذج المعرفية القائمة على فعل الانفصال والتفكيك المفرط بلا غاية، فلا ينبغي مثلا الاحتكام إلى الموضوعية الحيادية التي تعني موضوعا مرصودا دون ذات راصدة، ولا إلى الواحدية السببية التي تفرض حتمية العلاقة بين العلة والنتيجة، بل لا بد من نماذج تكاملية وشمولية، تضيي علاقات التفاعل بين مختلف العلوم وتؤسس بينية المعارف، وتؤمن بوجود عناصر ميتافيزيقية ما، تضيي على الوجود أسرارها وتحافظ على وجود مسافات معه، وهو ما يؤسس لبراديغم معرفي تكاملي، تفاعلي لا يحصر مطلقة المعرفة في علل الطبيعة وحدها ولا في قاعدتي التفسير والتعليل العقلي فقط، بل يجعل منهجها في شمولية

الرؤية التي تجمع بين مختلف عوالم الوجود مادة وروحا، عقلا ونقلًا، فردا وجماعة، وفوق ذلك تمكن لتجاسر معرفي بين العلوم والآداب والفنون، وانطلاقا من هذه الإستراتيجية تكون الخطط والنظريات التعليمية والبحثية.

5 - قائمة المراجع:

- إدغار موران، أي معرفة ينتجها الغرب - أزمة المعرفة عندما تقتصر الغرب إلى فن العيش، تر/ جاد مقدسي، مجلة الاستغراب، العدد الأول، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، بيروت، 2015.
- رشيدة محمي رياحي، أزمة القيم في المجتمعات هل خلاصها في تعقلها، مجلة أبعاد، العدد الثالث، 2016.
- سيد حسين نصر، نزع القداسة عن المعرفة في الغرب، ترجمة/ محمود يونس، مجلة المحجة، العدد 20، د - س.
- جاكليين روس، مغامرة الفكر الأوربي، تر/ أمل ديبو، الطبعة الأولى، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2011.
- بلعقروز عبد الرزاق، أزمة الحداثة ورهانات الخطاب الإسلامي، الطبعة الأولى، منتدى المعارف، بيروت، 2013، ص 62.
- *Louis de Broglie, Continu et discontinu, A. Michel, 1941, Paris, p60*
- عبد الوهاب المسيري ، الثقافة والمنهج، مجلة حورات، العدد الأول، 2002.
- عبد الحليم عويس، مسئولية القيادة الفكرية و فقه سنن الله في الحضارة، مجلة الداعي، العددان 9/8، د - س .
- عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، تحرير سوزان حرفي، الطبعة الأولى، دمشق، دار الفكر، 2013.
- عبد الوهاب المسيري، فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، الطبعة الأولى، دمشق، منشورات دار الفكر، 2003.